نوور عيني

المحاضرة الثالثة

التوجهات النظرية في علم الاجتماع الحضري

عناصر المحاضرة

- مدخل
- أولاً :النظرية الايكولوجية
- ثانياً :النظرية النفسية الاجتماعية

أهداف المحاضرة

- تفسير المداخل المنهجية لعلم الاجتماع الحضري:
- أولاً :تطبيق النظرية الايكولوجية
- ثانياً :تطبيق النظرية النفسية الاجتماعية

مدخل

- رغم أن الاهتمام بدراسة المدينة والحياة الحضرية قد استقر حديثا وصارت له دراسات وبحوث متخصصة ويمثل جهداً أكاديميا محدد الأبعاد إلا أن ذلك لا ينفي وجود مصادر معرفة انبثقت منها هذه الدراسات والبحوث المتخصصة، وقد عينت البحوث الحضرية في العقود الماضية بصفة خاصة وبشكل أكثر فهما بالبحث عن الحقائق وجمع المعلومات والبيانات أملاً في الوصول إلى تفسير منظم ومتقن للحياة الحضرية.

- خاصة وأن المدينة ظاهرة معقدة ومتشابكة يحتاج إلى فهمها منظورات نظرية أكثر شمولا وكفاءة إذا ما أريد لهذا الفرع من المعرفة أن ينمو وأن يتطور.

- وفي الواقع توجد عدد من المحاولات النظرية التي بذلت لتحديد معالم النظرية الحضرية أو تقييم الموقف النظري في علم الاجتماع الحضري وسنحاول في هذه المحاضرة أن نعرض بعض التوجهات النظرية لعل من أهمها النظرية الايكولوجية والنظرية النفسية الاجتماعية ونظرية الثقافة الحضرية ونظرية العولمة وثنائية الريفي والحضري.

- وتمثل هذه النظريات في الواقع توجهات نظرية معرفية يمكن من خلالها تناول أية ظاهرة تلحظ في المجتمع الحضري حيث أن الحياة الحضرية عملية مركبة ذات الأبعاد المتشابكة والمعقدة وهي ظاهرة سائدة في كل المجتمعات بدرجات متفاوتة ، وبالتالي فإن محاولة تفسيرها من خلال تلك النظريات تساعد على الواقع الفعلي لطبيعة تلك الظاهرة.

أولاً :النظرية الايكولوجية

- يعزو استخدام مفهوم الايكولوجيا **Ecology** إلى العالم البيولوجي الألماني" أرنست هايكل "عام 1869 حيث استخدم كلمة **Ockologie**ليشير بها إلى علاقة الكائن الحي ببيئته العضوية وغير العضوية.

- وقد اشتق المصطلح من الكلمة اليونانية **okios** ومعناها منزل أو سكن ، والمعنى الواسع للفظ يشمل أيضا من يقيمون في السكن ونشاطهم اليومي ومبلغ تأديتهم لوظائفهم للإبقاء على الحياة وضمان الحصول على مواردها ، وهو المعنى المفهوم من لفظ **Homing**وبذلك يكون المعنى العام لكلمة الايكولوجيا أنه العلم الذي يدرس الأفراد الذين يعيشون في بيئة واحدة والوقوف على مبلغ نشاطهم وتفاعلهم مع عناصر البيئة.

- أما **روبرت بارك** وهو مؤسس هذه النظرية فقد حدد الإطار العام للنظرية حيث ذهب إلى اعتبار المدينة مكانا طبيعيا لإقامة الإنسان المتحضر ، حيث كان بارك مفتونا بكثير من خصائص الحياة الاجتماعية في شيكاغو ولذا فقد لاحظ بعض التصورات الهامة عن المدينة من أهمها-:

- أنه رأى أن المدينة الحديثة عبارة عن بناء تجاري يدين في وجوده إلى السوق التي تتوسع المدينة حوله ، وأكد على أن المدينة الحديثة تتميز بالتقسيم المعقد للعمل ، وهيمنة السوق التي أدت إلى انهيار الطرق التقليدية في الحياة الحضرية.

•رأى بارك أن المدينة الحديثة تتسم بالبناءات الرسمية عن طريق وجود ما يسمى بسيطرة البيروقراطيات على نطاق واسع، وستلعب الأجهزة البيروقراطية مثل البوليس والمحاكم والمؤسسات التطوعية الخيرية ومؤسسات الرفاهية الاجتماعية دوراً متزايداً في الحياة الحضرية.

•كما تصور بارك المدينة – متأثرا بدراسات جورج زيمل – باعتبارها مكانا أصبحت الحياة فيه أقل عاطفية وأكثر عقلانية عن الحياة في أي مكان آخر ، بيد أن بارك كان واعياً في الوقت نفسه بأنه ربما يؤدى انهيار الروابط العاطفية التقليدية في المدينة إلى ظهور روابط اجتماعية جديدة معتمدة على جماعات المصلحة والعلاقات الثانوية.

•كما ذهب بارك في مقالته الرائدة(المدينة)بعض المقترحات حول دراسة السلوك الإنساني في البيئة الحضرية إلى أنه يحاول فهم المدينة بوصفها مكانا جغرافيا ، وكذلك باعتبارها نطاقا أخلاقيا، وهو يعتقد أنه يجب وصف المدينة بطريقة يمكن معها عن طريق التحليل الوظيفي إظهار إمكانات الحياة الثقافية والأخلاقية فيها.

•أما وصف بارك بأنه ايكولوجية المدينة فإنه لا يعني الاقتصار على تتبع التقسيم المكاني الداخلي للمدينة ، أو وضع خريطة لمختلف الأشياء التي توجد بها ، وإنما ما أراده في الحقيقة اكتشاف تأثير هذه الظواهر الفيزيقية في خبرة سكان المدينة الإنسانية والعاطفية ودورها في تشكيلها.

•ويفترض بارك أن الظروف النفسية والأخلاقية للحياة في المدينة سوف تعكس نفسها بصورة طبيعية في كيفية استغلال المكان وفي أنماط الحركة الإنسانية والانتقال ....الخ ، وافترض بارك بمعنى آخر أن الثقافة تتجلى في الأشياء المصنوعة وأن المدينة لها طابع عضوي.

•ورأى بارك أنه يمكن استخدام مناهج انثروبولوجية في دراسة جوانب حياة المدينة وخصوصا الثقافات الهامشية(كالعصابات) والمهاجرين المنعزلين والفروق بين الناس وفقاً لمحال إقامتهم ، وأما عن البيانات المتصلة بذلك فأمكن الحصول عليها من المصادر الإحصائية الرسمية.

•وقد ميز بارك في داخل المدينة ما يطلق عليه اسم(المناطق الطبيعية)وهذه المناطق هي مواطن للجماعات الطبيعية أو الفطرية كالبوهميين الذين يوجدون في المدن الكبرى بشكل طبيعي لأنهم غير مخططين ويعتبر وجودهم نتاجا للقوى التي تعمل باستمرار على توزيع السكان ووظائفهم على نحو مبين داخل مجتمع المدينة المعقد.

•كما رأى بارك أن المدينة عبارة عن بناء متكامل بمعنى أن ما يصدق عليها ينسحب على كل قسم من أقسامها الفرعية، بحيث تصبح لكل مجاورة من مجاوراتها خصائص متميزة استمدها من خصائص سكانها لتكشف عن استمرار تاريخي خاص بها ، وعلى هذا الأساس فإن المدينة تمثل وحدة على درجة عالية من التنظيم من حيث المكان انبثقت وفقا لقوانينها الخاصة.

•ولقد انطلق بارك نتيجة لذلك من حقيقة أن العالم الطبيعي وحدة تتحرك وفقا لقوى منتظمة يمكن تحديدها بسهولة ، محاولاً نقلها إلى دراسة المدينة كبيئة طبيعية أيضا ومن ثم وضع هدفاً للدراسة الايكولوجية مؤداه : أن الكشف عن الأنماط المنتظمة في المكان للعلاقات الاجتماعية.

•ولقد تحقق اكبر انجاز للنظرية الايكولوجية في صورتها الأولى على يد أرنست بيرجس وبخاصة فيما قدم من تصور نظري خاص للنمط الايكولوجي للمدينة، وتعرف هذه النظرية باسم نظرية الدوائر المتمركزة أو بالتصور الحلقي ومؤداه :أن المدينة تتخذ في نموها شكل خمس حلقات متحدة المركز تمثل الحلقة الأولى منها منطقة الأعمال المركزية وفيها تدور أكثر نشاطات المدينة كثافة ، وتقع على أطرافها حلقة ثانية هي منطقة التحول والانتقال التي تتعرض وباستمرار للتغير نتيجة اتساع ونمو الحلقة الأولى ، كما تتميز بكثافتها السكانية العالية وظهور التفكك الاجتماعي.

•أما الحلقة الثالثة فتضم منطقة سكنى الطبقات العاملة ويليها منطقة الفيلات وفى النهاية تقع الحلقة الخاصة خارج دود المدينة حيث تشكل الضواحي والأطراف مناطق سكنية لذوى الدخل المرتفع.

•عالج بيرجس نمو المدينة في ضوء امتدادها الفيزيقي وتمايزها في المكان، وإن هذه الحلقات الخمس تتمثل في نظره مناطق متتابعة من الامتداد الحضري، وهو في تأكيده لهذا الوصف الفيزيقي ذهب إلى أن ظاهرة النمو الحضري هي نتيجة لازمة لعمليات التنظيم والتفكك في نفس الوقت، تشبه تماما عمليات الهدم والبناء في الكائن العضوي.

•وإذا كان كل من بارك وبيرجس قد نجحا إلى حد ما في تصوير المدينة ككيان فيزيقي يتميز بحلقاته ودوائره الخمس، فإن ماكينزى جاء بدوره ليوضح القوانين والعمليات التي تعمل داخل هذا الكيان وتفسر بالتالي وجود هذه المناطق المميزة وذلك من خلال عمليات كالمنافسة والتركيز والإبادة والعزلة والغزو والتعاقب، ورأى أنها منشأ أو توحد هذه المناطق الطبيعية التي تشكل البناء الفيزيقي للمدينة.

•وهنا نطرح سؤالاً مؤداه : ما هو المقصود بالغزو والعزلة والإبادة ؟

•يقصد بالغزو العمراني هو انتقال الجماعات والأفراد من منطقة لأخرى ويسمى أحيانا الهجرة وقد يكون على نطاق واسع وقد يضيق نطاقه فيقتصر على تحريك بعض الجماعات بقدر محدود.

•أما العزلة فتتخذ مظهران يمثل المظهر الأول العزلة الفكرية والمذهبية بمعنى أن الجماعات التي تمارس العزلة من الممكن أن تصاهر غيرها أو تدخل في علاقات اجتماعية مباشرة مع الآخرين رغم التباعد الفكري أو المذهبي، أما المظهر الأخر فهو العزلة الكاملة من الناحيتين الاجتماعية والمكانية ، فلا تختلط هذه الجماعات بغيرها ولا تتعامل إلا في أضيق الحدود ، وتحافظ بقدر الإمكان على مقوماتها وخصائصها وتراثها الاجتماعي ويعبر عن المظهرين معاً بالعزلة البشرية.

•والإبادة الاجتماعية فتتضمن مظهران ويشير المظهر الأول إلى حملات الإبادة لجماعات بأسرها عن طريق الاضطهاد الديني أو الجنسي أو الاعتقال ، أما المظهر الثاني فيتضمن إفناء التراث الثقافي والقضاء على مقومات الحضارة والدين وذلك عن طريق إغلاق للمدارس والجامعات وتخريب المكتبات وقتل الأساتذة والطلبة وتشريدهم.

•هذا وقد ازدادت عمليات الغزو والعزلة والإبادة والتعاقب في المجال العمراني إثر تطور الهجرة الداخلية والخارجية وقيام الحروب سواء كانت حروب عالمية أو حروب إبادة يقوم بها المستعمرون من البيض ضد الأجناس الآخرين مما وسع من نطاق الدراسات المتصلة بالايكولوجيا الاجتماعية.

•ولقد ساهم كل من دنكان وشنور وهاولى وهم من أقطاب النظرية الايكولوجية حيث توصلا إلى أن درجة التحضر بالمجتمع تتناسب طردياً مع طبيعة نظام تقسيم العمل بالمجتمع الحضري، بمعنى أنه كلما ازدادت درجة تقسيم العمل الاجتماعي نتيجة سيادة النظام الصناعي بالمجتمع الحضري ارتفعت درجة التحضر به.

•كما أن درجة التحضر تتناسب طردياً مع التطور التكنولوجي السائد وهي نتيجة منطقية تتسق مع نمط النشاط السائد بالمدينة وهو الصناعة في الغالب، حيث يؤدى هذا النشاط إلى استخدام مخرجاته أي المقتنيات التكنولوجية الحديثة في زيادة تحضر المجتمع نتيجة استخدام موارده المتاحة بشرية كانت أم مادية أفضل استخدام ممكن.

•ولا يتوقف النشاط الحضري وينحصر داخل حدود المدينة فقط وإنما يمتد أيضا إلى المناطق المتاخمة أولاً ثم إلى المناطق الخارجية ثانياً، وبطبيعة الحال فإن التناسب هنا يكون عكسيا بين البعد المكاني عن المدينة ودرجة التأثير الناجمة.

•وفي منتصف الأربعينات من القرن العشرين صاغ كل من هاريس وأولمان نموذج النوايات المتعددة الذي يذهب إلى أن نمو المدينة لا يعتمد على نواة واحدة وإنما على نوايات متعددة ، فهناك النواة الرئيسية في مركز المدينة وهي منطقة النشاطات التجارية والخدمات الرئيسية وهناك نواة تجارة الجملة والصناعات الخفيفة بالقرب من النواة الرئيسية ، كذلك توجد نواة الصناعات على أطراف المدينة ، وحول هذه النوايات تتوزع مناطق سكنية متنوعة بعضها للدخل المحدود وبعض آخر للدخل المتوسط وبعض ثالث للدخل المرتفع.

•وبرغم أهمية إسهامات النظرية الايكولوجية في تفسير البناءات الايكولوجية الحضرية إلا أنها تعرضت لنقد شديد، ولقد كان من أهم ما وصفت به النظرية الايكولوجية المبكرة أنها بدأت تحليلها من طريق خاطئ وذلك عندما وجهت كل اهتمامها إلى الجوانب الجيوفيزيقية للمدينة دون أن تهتم بحياتها الاجتماعية.

•فالحياة الاجتماعية – على حد تعبير مارتندال -هي بناء التفاعل وليست بناء الحجر والصلب والأسمنت والأسفلت ، وليس أدل على أن النظرية الايكولوجية قد ضلت طريقها إلى التحليل السوسيولوجي من الاهتمام الكثير من الدراسات الايكولوجية باكتشاف خصائص المناطق المختلفة دون اهتمام بنوع الحياة الذي أدى إلى ظهور هذه الخصائص كمن يهتم بدراسة الجريمة ومسرحها دون اهتمام بالمجرم نفسه.

•كذلك فقدت النظرية الايكولوجية بشدة لبدائية مفاهيمها وعدم أهميتها في التحليل السوسيولوجي للموضوعات التي طرحتها، كمفاهيم للمناقشة والعزل والغزو... الخ ، من المتصور في نظر البعض مثل مارتندال أنه بالإمكان أن تعالج بعض المسائل المرتبطة بالحياة الاجتماعية الحضرية في ضوء هذه المفاهيم ولكن ليس بالإمكان أن تتحدد من خلالها لأنها تنطبق على الحياة الريفية كما تنطبق على الحياة الحضرية.

•بل لا يقتصر استخدامها على الحياة الإنسانية فحسب فقد تمتد لمعالجة بعض الأمور المرتبطة بالحياة النباتية والحيوانية أيضا، أن النظرية الايكولوجية بهذا المعنى قامت على تصورات غير كافية لصياغة نظرية محددة المعالم عن المدينة يمكن أن تتميز عن نظرية أخرى تعالج موضوعاً آخر في إطار النظرية السوسيولوجية ، غير أن ذلك لا يعنى أن النظرية الايكولوجية كانت ضرباً من العبث ، فالحق أن للنظرية الايكولوجية في تاريخ علم الاجتماع الحضري لها وزنها وأهميتها وبخاصة في القدر الهائل من البيانات والمعطيات الأمبريقية التي قدمتها عن المدينة.

ثانيا : النظرية النفسية الاجتماعية

•تشير هذه النظرية في علم الاجتماع الحضري إلى أعمال رواد مدرسة فكرية متميزة ظلت تسيطر على علم الاجتماع الألماني لفترة طويلة حتى وقتنا هذا ، كما تمثلها أعمال ثلاثة من روادها «ماكس فيبر ، و جورج زيمل ، و أوزفالد شبنجلر » الأوائل وهم وفيما يلي نشير إلى أهم إسهامات كل منهما على النحو التالي-:

1) ماكس فيبر وتصوره للمدينة:

•لقد انتهج ماكس فيبر في معالجته للمدينة منهجا يختلف تماما عن ذلك الذي ذهبت إليه أعمال تونيز ودوكايم ولكنه كان مهتما بتطوير نموذج عام للمدينة ، ولكنه ذهب إلى أن تحقيق ذلك بدون الاهتمام الواعي بالمدن الفعلية في الأنماط المختلفة من العالم ، وفي أزمان مختلفة سيؤدى إلى نظرية حضرية ذات قيمة محدودة جداً.

ولتوضيح هذا المنهج كتب فيبر معالجته الشهيرة عن المدينة والتي ظهرت لأول مرة عام 1921 حيث قام بمسح المدن في التاريخ الأوروبي والشرق الأوسط وقارن بينهما وفقاً لمعلوماته وبياناته عن المدن التاريخية ، وطور فيبر تعريفاً أسماه بالمجتمع المحلى الحضري المتكامل فإنه يجب أن تبدى المنطقة هيمنة نسبية للعلاقات التجارية هذا فضلاً عن تميز المنطقة الحضرية بالسمات التالية-:

أ- أن يعتمد المجتمع الحضري الكامل على التجارة أو العلاقات التجارية وأن المدينة على عكس المجتمع الريفي لا يمكن أن تحقق اكتفاء ذاتيا من الناحية الاقتصادية تقريباً ، فالسكان يعتمدون على بعضهم البعض اقتصادياً بمعنى التضامن العضوي الذي ذهب إليه دوركايم.

ب- أن المدينة يجب أن تكون مستقلة نسبياً حيث حدد فيبر أن تقيم المدينة محكمة وقانونا خاصة بها، أو على الأقل استقلال سياسي جزئي.

ج- ضرورة أن يكون المجتمع الحضري على شكل متصل من الرابطة بمعنى أن يقيم سكان المدينة علاقات تقوم على المشاركة في حياة مدينتهم.

•ولقد كان فيبر يقصد من تعريفه للمدينة أن يقدم نموذجا مثاليا لظروف المدينة أي كوسيلة للحياة الحضرية تستطيع أن تواجه القدرات الاجتماعية الكامنة في هذا التنظيم للإقامة البشرية، ويفترض هذا النموذج المثالي أنه من الممكن تقديم وصف عقلاني أو رشيد لظاهرة اجتماعية مثل المدينة.

•ولكن هذا الوصف العقلاني قد قام على المنظور التاريخي ومعني ذلك أن النظرية العقلانية عن المجتمع هي نتاج للتاريخ أي نتاج الخبرة الحقيقية للناس، وليست مستندة إلى فروض أو أبنية فرضية تنتمي إلى بعض المفكرين ، وباستخدام طريقة النماذج المثالية يمكن المقارنة بين الصور الاجتماعية المركبة ويستخدم العقل كوسيلة أو أداة للتعمق في الخبرة التاريخية تلك التي لا تظهر إذا حصر الملاحظ رؤيته في نطاق المادة التاريخية خلال الزمان.

•وبالتالي يفترض النموذج المثالي لفيبر عن إمكانية إيجاد وصف رشيد (عقلي)لأية ظاهرة اجتماعية مثل المدينة، إلا أن المناقشة الرشيدة غالبا ما تحدث خارج لغة التاريخ ولذلك نرى ماكس فيبر في معالجته للمدينة قدم تفسيراً جديداً حيث أن معاصريه لم يحاول تحليل أثر العوامل الحضرية في بعض جوانب الحياة الاجتماعية ، كما فعل معظم المعاصرين له ممن تأثروا بأعمال توينز ودوركايم.

•كما أنه من ناحية أخرى ابتعد تماماً عن الاتجاه التصوري أو الشكلي الذي تبناه زميله زيمل وحاول جاهدا أن يوضح الظروف التي تجعل دور المدينة ايجابياً أو ابتكارياً في الحياة العامة للإنسان مستعيناً في ذلك بدراسته لمدن الماضي أو المدن القديمة ومعتمداً في نفس الوقت على تصور خاص في تعريفه للمدينة.

•ومن الممكن أن يوصف الموقف النظري لماكس فيبر بأنه شكل من أشكال السلوكية الاجتماعية، فهو لم يرغب في أن يحدد أبعاد التحليل السوسيولوجي في مجرد وصف أو تصوير الأشكال النفسية فقط، بل اعتمد منذ البداية أن مهنة علم الاجتماع تتمثل في شرح السلوك الإنساني في أبعاده الهادفة وذات المغزى لا من وجهة النظر الخارجية فقط.

•وبمعنى آخر تمثلت مهمة علم الاجتماع في نظره في شرح وتفسير الأفعال الإنسانية والعلاقات في ضوء معانيها أو مغزاها بالنسبة لأطرافها وأيضاً ما يرتبط بها من تغيرات فيزيقية خاصة ، ومن هنا تبدو قيمة المدخل الذي قدمه ماكس فيبر لدراسة المدينة ومشكلاتها من وجهة نظر علم الاجتماع" الفعل الاجتماعي "بمقارنته بزيمل.

•ففي الوقت الذي ينحل فيه المجتمع في نظر كل منهما إلى تفاعلات اجتماعية وسلوك إنساني متبادل وهادف، نجد أن زيمل يقصر مهمة علم الاجتماع على دراسة الصور المختلفة للسلوك والتفاعل دون محتواها أو مضمونها، ليصبح العلم في النهاية مجرد عملية إحصاء للصور النفسية للفعل الاجتماع فقط، بينما يدع فيبر هذا التمييز بين الصورة والمحتوى جانبا ويقرر أن مهمة علم الاجتماع هي تقديم تفسير علمي للفعل الاجتماعي.

•وقد ترتب على ذلك أن احتوت نظريته في المدينة والتحضر على نظرية زيمل دون أن يكون العكس صحيحاً ، وكانت معالجته للمدينة على هذا النحو محاولة لبناء نموذج نظري متكامل للحياة الحضرية.

•لقد بدأ فيبر في دراسته للمدينة بالتصور الشائع للمدينة على أنها منطقة مستقرة وكثيفة من سكان متزاحمين ينعدم التعارف الشخصي والمتبادل بينهما، وفي هذا الصدد يطرح فيبر عددا من المفاهيم الأساسية التي يبدو أن لها صلة بالمجتمع المحلي يستطيع من خلال فهمها أن نمهد لتصوره للمجتمع الحضري منها-:

1.الأفعال الاجتماعية :وهي الوحدات النهائية أو المطلقة للتحليل السوسيولوجي ، أي أنها تصرفات إنسانية متداخلة ومتبادلة ذات مغزى أو معنى معين للأطراف المشتركين فيها.

2.العلاقات الاجتماعية :ويشير هذا المفهوم إلى ترتيب أو تنظيم ثابت للعناصر التي تظهر في الفعل الاجتماعي ، فهي - أي العلاقات – لا توجد بمعزل أو خارج الأفعال الاجتماعية ، بل هي ترتيبات متخيلة للفعل يمكن تصورها على نحو مجرد كأنماط للفعل الاجتماعي الظاهر.

3.النظم الاجتماعية :وينطوي مفهوم النظام على نفس العلاقة القائمة بين الفعل والعلاقة الاجتماعية ولكن على مستوى أكثر تجريداً ، فالنظام الاجتماعي يعرض دائماً أنماطاً أكثر ثباتاً للسلوك ومع تلك الأهمية التي تبدو للنظم الاجتماعية إلا أنها لا تكفي بذاتها لتفسير الحياة الاجتماعية برمتها، ونظراً لأنها تمثل جوانب مختلفة ومتعددة للحياة الاجتماعية، أن دراسة النظم تمهد الطريق للباحث ليصل بعد دراستها واحدا بعد الآخر إلى الوحدات الكبرى المنظمة للحياة الإنسانية المتداخلة.

4.المجتمع المحلي :هو وحدة كلية منظمة للحياة الاجتماعية لا يتميز بنظام واحد بعينه بل مجموعة منسقة ومتداخلة من النظم.

•وبصدد الحديث عن المجتمع المحلي الحضري وجد فيبر أن ما قدم قبله من تفسيرات كانت عبارة عن تصورات جزئية للمدينة ، فالمدينة بالمعني الاقتصادي أو بمعني كحامية عسكرية أو كجهاز إداري سياسي لا تكون مجتمعاً حضرياً كاملاً إلا إذا كان يمثل نوعاً من سيطرة أو غلبة العلاقات التجارية ويعرض ككل لمجموعة من الخصائص أهمها-:

١. التحصين.
٢. السوق.
٣. محكمة خاصة وقانون مستقل.
٤. شكل مترابط من أشكال الرابطة.
٥. الاستقلال الذاتي أو على الأقل إدارة ذات سلطات يشارك فيها المواطنون بالانتخاب.

•ويبدو أن تصور فيبر للمدينة واضحا إذا حددنا المصطلح المرتبط به ارتباطا وثيقا وهو مصطلح **cosmopolitan** أو مصطلح العالمية حيث نستطيع أن نصف أي منطقة للإقامة البشرية بهذه الصفة إذا ظهرت فيها أساليب متنوعة للحياة جنباً إلى جنب مع وجود أفراد ذو اتجاهات مختلفة ، ولقد نقل فيبر هذا التعريف إلى ثقافة المدينة ذاتها.

•فالمدينة هي الشكل الاجتماعي الذي يسمح بدرجة عالية من الفردية، والتميز في كل مظهر واقعي من المظاهر الموجودة في العالم، ولتحديد معنى المدينة لا يمكن الاقتصار على وصف نمط حياة منفرد ولكن باعتبار أنها أحد البناءات الاجتماعية التي تعمل على إيجاد أساليب حياة ملموسة ومتعددة وهكذا تصبح المدينة مجموعة من البناءات الاجتماعية التي تعمل على تشجيع الفردية والتجديد ومن ثم تصبح أداة للتغير التاريخي.

•ومن هنا نستطيع أن نوضح دراسة فيبر للمدية وحيث افترض أن المدينة الحديثة لا توضح أو تعبر عن المدينة باعتبارها ثقافة ، فقد نظر إلى المدن في أيامه على أنها نظم بدائية ومتخلفة، أكثر من كونها نتاجات لخط معقد من التطور التاريخي مثلما اعتقد كثير من المعاصرين له، فالقوة الرشيدة والبيروقراطية الكامنة في الرأسمالية الحديثة عبارة عن عمليات جدلية معقدة.

•إلا أنها تعمل على إيجاد نوع من انتكاس أو تقهقر البيئة الحضرية وعلى العكس من الماركسيين الذين عاصروه فقد ذهب فيبر إلى عدم الاعتقاد في التطورات التاريخية التي تظهر بصورة جامدة وموجهة، فقوى النمو الصناعي توجد حالة من التخلف الحضاري أكثر مما حدث في مدن العصور الوسطى، وهكذا استطاع أن يشف ويجدد الشكل الحضري في العصور الوسطى المتأخرة في البلدان.

•وأن يلقى الضوء على المدن الايطالية في عصر التنوير والتي بدت أكثر قربا من تنميط ظروف وحالات بناء المدينة التي نتج عتها أساليب حياة حضرية متنوعة وعديدة وهي بهذا على العكس من تلك المدن التي تسود أوروبا في العصر الحديث والتي يأمل فيبر في توضيحها دون دراسة تغيرها وكيفيته وإنما توضح ما يمكن أن يفقد منها الآن.

2)جورج زيمل والحياة العقلية للمدينة:

•لقد كان زيمل صديق وزميل دراسة لماكس فيبر ، ولقد اشترك كل من فيبر وزيمل في تصور البناءات التي تكون المدينة الغربية الحديثة إلا أن زيمل لم يوافق فيبر في تفسير سبب وجود المدينة بالإضافة إلى أن زيمل يرى إمكانية وجود حياة حضرية معقدة وجديدة في تلك الأشكال الحضرية للعصر الحديث.

ويرى زيمل أن الحقيقة للحياة الحضرية لكل الأنواع سواء في الأسرة أو القانون الحضري كانت متمثلة في الشعور بالقهر ، ذلك الشعور الذي يحيط بالإنسان في المدينة التي يعيشها.

ويرى زيمل أن الإفراط في الحافز النفسي يقود الناس إلى محاولة الدفاع عن أنفسهم برد الفعل العاطفي بالنسبة لمن يحيطون بهم في المدينة وهذا يعنى ألا تحاول القيام برد الفعل كما تفعل جميع الكائنات البشرية، وكدفاع ضد تعقيد الحياة الحضرية.

•ولقد توصل زيمل إلى صورة تشبه كثيراً ما توصل إليه فيبر عن خصائص حياة المدينة الحديثة تلك الخصائص المتمثلة في اللاشخصية والبيروقراطيات التي لا تتمثل فيها العلاقات المباشرة وعمليات السوق الفعلية إلا أن زيمل يعتقد أن هذه السمات ناتجة عن حالة نفسية اجتماعية تصيب طبيعة التحضر.

•ولذلك يرى زيمل أن الخصائص الوظيفية وغير العاطفية الأكثر ارتباطاً بالمدينة هي القوى التي تحفز الناس إلى النظر للنظام المبهم في الحياة ، وهي القوى التي تحرر الناس إيجاد دائرة السلوك الروتيني لمشاعرهم وآفاقهم الثقافية، وحيث أن روتين الحياة هو سلوك دفاعي فإن الشخص الذي يدافع عن نفسه يعتقد أن ذاتيته هو تكمن في مقدرته على الدفاع وارتفاع فوق المسائل الدنيوية والأشياء العاطفية وأن يعيش حياته بعيداً عنها.

•لذا فقد رأى زيمل أن ظهور العالم الحديث كان سببا للاهتمام بكيفية قدرة الفرد على تمكينه من إبقاء روح الحرية والإبداع في قلب العوامل الاجتماعية الشاملة ، وأكد في مقالته الميتروبوليس والحياة العقلية إلى أن الفرد سيتعلم القدرة على تعليم نفسه مع الحياة في المدينة، فالمدينة في تصور زيمل تمطر الفرد بوابل من المناظر المختلفة والأصوات والروائح.

•ومن أجل مقاومتها يجب أن يتعلم كيفية التمييز بينها بدقة ويتوافق مع الضروري ويبتعد عما لا يعينه ، وتصبح هذه العملية التي تحدث في الإنسان الحضري أكثر تعقيدا وعقلانية عنها في الإنسان في القرية، ونتيجة لعملية التمييز هذه فإن المدينة ككل تصبح أكثر عقلانية ورشداً، فالسكان يخططون وينظمون حياتهم اليومية لتحقيق أعلى فاعلية فمثلاً التنظيم المعقد للوقت في المدينة الذي يتمثل في المنبهات وساعات اليد.

•ورأى زيمل أنه لو توقفت فجأة كل الساعات في مدينة مثل برلين بألمانيا ولو لساعة واحدة فقط، فإن الحياة الاقتصادية والاتصالات في المدينة سترتبك لفترات طويلة، وبالإضافة إلى التنظيم الرشيد للوقت نظر زيمل إلى عقلانية المدينة التي تظهر في التقسيم المعقد للعمل، فالحياة الاجتماعية في المدينة هي تفاعل المتخصصين.

•كما أشار زيمل إلى أن الميتروبوليس(المدينة الأم)كان دائما هو المقر الرئيسي لاقتصاد النقود ، والتي تعتبر النقود أحد الأسباب الأساسية لتحقيق عملية التبادل، وأن النقود تهتم فقط بما هو مشترك بين الجميع كما أنها تختزل كافة الأنماط إلى السؤال بكم أو إلى قيمة عددية.

•وفي إطار الأسس النفسية التي تكمن وراء الحياة الحضرية الميترو بلقائية ذهب زيمل إلى أن ساكن الميترو بوليس يواجه دائما بالعديد من التوترات ، وأنه من المتعين عليه أن ينمى في ذاته(عقله)تقيه هجمات عناصر البيئة الخارجية التي تحاول دائما اقتلاعه والإطاحة به، وتتمثل هذه العقلية في ضرورة أن يستجيب ساكن الميترو بوليس أو يتفاعل بعقله لا بقلبه لأنه إذا استسلم لعواطفه ومشاعره في تفاعلاته كان الضياع قدره لا محالة.

•أن البيئة التي من حوله تكثف لديه إدراكاته وليس مشاعره أو عواطفه ، وتؤدى باستمرار إلى غلبة الذكاء الذي يسير جنباً إلى جنب مع تخصص البيئة الحضرية وتمايزها ويصبح في النهاية من أهم الخصائص المميزة للمدينة.

•وهكذا يتفق زيمل مع فيبر في بعض النقاط ويختلف معه في نقاط أخرى، فهو يتفق معه في أن الصورة الحضرية التي توجد في العصر الحديث تشير إلى إمكانية ظهور حياة حضرية ومعقدة، وفي أنه بالإمكان وصف هذه الصورة بالاعتماد على نماذج مثالية ولكن عناصر هذا الوصف يجب أن تكون سوسيولوجية أكثر منها بنائية.

•إن حالة الضياع التي يعيشها إنسان المدينة والابتعاد عن الاستجابات العاطفية بين سكان المدينة والعلاقات الجزئية والانفعالية بينهم وسيطرة البيروقراطية وإدارة السوق كميكانيزمات تدفع إليها الحياة الحضرية ، ولكن في الوقت الذي يرى فيبر أنه ظهرت بتأثير قوى اقتصادية متضمنة في الرأسمالية يرى زيمل أنها نتاج ظروف حضرية ذات طبيعة نفسية واجتماعية في الأساس.

3) أوزفالد شبنجلر وثقافة المدينة:

•يعتبر أوزفالد شبنجلر آخر ممثل للنظرية النفسية الاجتماعية ، والذي لم يكن صديقا شخصيا لأي من فيبر أو زيمل إلا أن كتاباته عن المدينة تعكس بعض أفكارهما وهي التي كان لها تأثير واضح على مدرسة شيكاغو بأمريكا.

ويعتقد شبنجلر أن مراحل تطور المدينة تشير إلى الحياة الحضرية ككل في الثقافات الغربية بهذا التصور تميز تماما عن تصورات فيبر وزيمل الذين اهتما بتتبع الخصائص المميزة للمدينة كبناء اجتماعي ، كذلك ذهب شبنجلر إلى أن مراحل نمو المدينة تتخذ شكل الدورة لأن نشأة المدينة الثقافية وتدهورها يتخذ نمطاً واضحاً يكشف عن مراحل النمو والتدهور في المجتمع إلا أن شبنجلر ابتعد عن المفكرين القدامى.

وذلك بوقوفه على مجريات النمو الحضري الذي يختلف عن النمو الصحي للمجتمع، فلقد اعتقد شبنجلر أن المدينة الكبيرة في عصره تعمل على إفساد نشاط وحيوية وطاقة من يقيم بها حيث تتميز بالطابع الروتيني وتصبح الحياة فيها قاسية، بحيث تتدهور المدن ويعود المجتمع إلى نوع من الحياة الزراعية وغير المتمدنة، وهكذا تعمل دورة النمو الحضري على إعادة تنظيم ذاتها.

•وفى كتابه الأساسي تدهور الغرب كان يعتقد شبنجلر أن ثقافة المدينة الغربية قد أخذت في التدهور والتفسخ منذ بدايات القرن العشرين ، كما يعتقد شبنجلر أن دورة الحياة الحضرية تنطبق على إفساد سكانها عن طريق اختفاء الطابع النظامي على عمليات العلاقات البشرية المتبادلة وعن طريق جعل هذه العمليات روتينية وغير عاطفية ، ولقد أدرك زيمل هذا من خلال تطور المدن الأكبر حجماً.

•إلا أن فكرة شبنجلر أن كل ثقافة غربية أو غير غربية لها روح شعبية تظهر في المراحل الأولى من تطورها وهذه الروح تمنع الثقافة هويتها وحينما تنمو المدن تدريجيا فإن ذلك يؤدى إلى تغيير هذا الطابع الثقافي نتيجة تشجيع الفردية والانفصالية بين أعضاء المدينة، وهكذا تتشابه جميع المدن الكبرى طالما أنها نشأت في الأصل عن ثقافة واحدة ، هذا التشابه هو علامة المرض والتغير والأفول الداخلي، أما التوازن بين القرية والمدينة فهو رأي شبنجلر مفتاح صحة كل المجتمعات النامية.

•والمدينة في تصور شبنجلر هي الميجابوليس وهي الفكر المتحرر ، فلقد تولد الذكاء أصلا في خضم مقاومة القوى الإقطاعية بتقاليدها من البورجوازية كطبقة مفكرة أصبحت أكثر وعياً بوجودها ، عندما نما هذا الذكاء أعاد المفكر الحضري تشكيل عقيدة العصر الذهبي ليحل الدين الجديد لطبقة العوام والعلم الليبرالي المتحرر، ليحل الدين القديم لطبقة النبلاء والقساوسة.

•وبنفس القوة والوضوح أطلعت المدينة بمهمة السيطرة على الأرض مستقبلة لتلك القيم التقليدية التي ارتبطت بها بفكرة النقود أو المال كفكرة متميزة عن السلع أو المنتجات ، وكذلك تضمنت حياة المدينة التأكيد على المال كفكرة متميزة عن السلع والمنتجات، وكذلك تضمنت حياة المدينة التأكيد على المال جنباً إلى جنب مع الفكر والذكاء.

•إذا لم يقتصر دور المال على مجرد فهم المعاملات الاقتصادية فحسب بل امتد أيضا ليخضع تبادل السلع والمنتجات لاتجاهات نموه ، وكلما نمت المدينة وزاد توسعها كلما تطور سوق المال، لأن المال أصبح هو القوة المسيطرة ، ولقد أصبح المال بالنسبة للإنسان شكلاً من أشكال النشاط الذي يوقظ باستمرار شعوره بالوجود والبقاء حتى أصبحت المدينة تمثل ديكتاتورية المال غير المحدود.

•وهكذا يتبين لنا أن هناك اتفاقاً واضحاً يجمع ما بين تصور فيبر وزيمل وشبنجلر مؤداه التأكيد على العقلية الحضرية رغم اختلاف كل منهما في تفسير هذه العقلية كلما كشف هذا التأكيد عن تصورهم النفسي الاجتماعي في تحليل ظروف الحياة في المدينة الحديثة.